الحريَّاتُ والأديانُ

احترامُ التَّعدُّدِيَّةِ الدِّينيَّةِ

محمود الهباش(*)

الحمد للهَّ، والصلاة والسلام على رسول اللهَّ، وعلى آله وأصحابه ومن والاه، وبعدُ... الحريَّاتُ والأديانُ احترامُ التَّعدُّدِيَّةِ الدِّينيَّةِ

لقد خلق اللهَّ الإنسان في أصله حُرًّا عاقلًا مُختارًا، وجعل حُرِّيتَه وعَقله واختياره مناطَ المسئوليَّة، وشرطَ التكليفِ الإلهيِّ له بالعبادة والخلافة وعمارة الكون، وبدونها لا يعود الإنسان مُكَلَّفًا من ذلك بشيء، وبالتَّالي لا يعود محاسَبًا على شيء، فالحريَّة والاختيار والعقل ضرورةٌ من ضرورات الوجود الإنسانيِّ في هذا العالَم، وواجبٌ من الواجبات الشرعيَّة التي فرض الإسلامُ حِفظَها وصيانتَها، وأولويَّةٌ من الأولويات التي أوجبَ المحافظةَ عليها واحترامَها في كلِّ زمان ومكان، ومَنَعَ الحَجْرَ عليها أو مُصادرَتَها؛ لأنَّ في حرمان الإنسان من حريته إهدارًا لكرامته الإنسانيَّة، وتبديدًا لطاقته الإيجابيَّة.

وقد جعل اللهَّ تبارك وتعالى هذه القاعدةَ جزءًا أصيلًا من قواعد المفاهيم القرآنيَّة المؤسِّسة للثقافة الإسلاميَّة، الناظمةِ لسلوك المسلمين وحركةِ حياتهم على مَرِّ التاريخ، حيث يقول تبارك وتعالى في التأسيس لهذا الفهم: *وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ* (٩٩).

والاختلافُ بين الناس في العقائد والأديان، كما في الخِصال والطبائع والأجناس والألوان واللغات، أو ما يمكن تسميتُه بالتعددية الدِّينيَّة -حقيقةٌ لا يمكنُ إنكارُها أو تجاوزُها، بل ينبغي التسليمُ بها والتعايشُ معها واحترامُها، ولعلَّ هذا ما فعله الإسلامُ منذ بداياته الأولى مع رسول اللهَّ صلى الله عليه وسلم، ثم مع أصحابه رضي اللهَّ عنهم، باعتبار أن قضية الحريَّات في إطارها العام، ثم في إطار حريَّة الاعتقاد والتديُّن خاصَّةً، هي جزءٌ لا يتجزَّأُ من أُسس النظام الإسلاميِّ وقواعده، هذا النظام الذي يشمل نواحيَ الحياة الإنسانيَّة كلَّها، انطلاقًا من قول اللهَّ تبارك وتعالى: *وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ*.

لقد رفض الإسلام رفضًا قاطعًا أن يدخل الناس فيه كُرْهًا، فهذا يتناقض مع طبيعته وغايته، وكَفَلَ لهم بالتالي حريَّةَ العقيدة دون جَبْرٍ أو إكراهٍ، وفي هذا يقول اللهَّ تعالى: *لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ*، وهذا مبدأ عامٌّ شديد الصراحة والوضوح في رؤية الإسلام للآخَر وفي تعامُله معه، لا يجوز لأحدٍ أن يخالفَه أو يقولَ بما يخالفُه كليًّا أو جزئيًّا، ولا صحَّةَ للقول بأنَّ هذه الآيةَ منسوخةٌ بالسُّنَّةِ، فالسُّنَّةُ لا تَنسَخُ القرآن كما قال الإمامُ الشافعيُّ رحمه اللهَّ في كتاب «الرسالة»، وإنما هي تابعةٌ للقرآن ومفسِّرةٌ لمعنى ما أنزلَ اللهُّ فيه(*).

فالناسُ جميعًا وَفقَ هذه القاعدة القرآنية الماضية أحرارٌ فيما يعتقدون، وأحرارٌ فيما يمارسون من عباداتٍ أو شعائرَ انطلاقًا من دِينِهم، ولا يملكُ أحدٌ الحقَّ في إكراه

الناس على غير ذلك، ومن فعل أو حتى حاول أن يفعل، فإنه يُصادم القاعدةَ القرآنيَّةَ التي تُرسيها هذه الآيةُ الكريمةُ التي تنفي أيَّ حق لأيِّ أحد في إكراهِ الناسِ على ترك دينٍ يؤمنون به، أو الدخولِ في دينٍ لا يريدونه؛ فدخولُ الناس في الإسلام عن رِضًى وطواعيةٍ، وبدون جَبْرٍ أو إكراهٍ؛ هو أساسُ الرسالة التي أنزلها اللهُ سبحانه وتعالى، وغايةُ الدعوة التي حَمَلَها الرسولُ صلى الله عليه وسلم وهدفُها، فالإكراه لا يُنتِجُ دينًا، ولا يَبني عقيدةً، وإنما يؤسسُ للنفاق والكذب والخداع، والإسلامُ أبعدُ ما يكون عن ذلك، فوق أن ذلك يفتحُ البابَ على نشر ثقافة الخوف والكراهية في المجتمعِ.

وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم شديدَ الحرصِ على تحقيق التغيير الإيجابيِّ في حياة الناس، دون أيِّ عنفٍ أو إكراهٍ أو إراقةِ دماءٍ؛ امتثالًا للأمر الإلهيِّ في قول اللهَّ تعالى*فَذَكِّرۡ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٞ، لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ* وفي قوله عز وجل: *فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ* (40)، وفي قوله: *فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ* وقوله أيضًا: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨)، وقوله عز وجل: *وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ*.

فهو صلى الله عليه وسلم لم يأتِ حاملًا رسالةَ تدميرٍ أو هلاكٍ أو انتقامٍ، بل رسالةَ سلامٍ وأمانٍ لكلِّ بني البشر؛ رسالةً أساسُها حُبُّ الخير للناسِ جميعًا، والحرصُ

على إخراجهم من ظلماتِ الجاهليَّة وضيقِها إلى نورِ التوحيدِ وسَعَتِه، ومن انحرافاتِ الوثنيَّة وتخبُّطاتِها إلى استقامة الحَنيفيَّة السَمْحة، وهو كما وصفه اللهُّ تعالى بقوله: *وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ* فمن استجاب لذلك مختارًا دون جَبْرٍ أو إكراهٍ فقد حقَّق الغايةَ، ومن لم يستجب فلا إكراهَ له على الاستجابةِ، حيث لم يؤثَر عن رسولِ اللهَّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قد أَكرَهَ أحدًا من الناسِ على الدخولِ في الإسلامِ، أو قتل أحدًا من غيرِ المسلمين بسبب دِينِه أو عقيدته، لا من المشركين، ولا من أهل الكتابِ أو المجوسِ أو الصابئةِ أو غيرِهم من أصحابِ المِلَلِ أو النِّحَلِ.

وفي سيرةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ما يؤكِّدُ احترامَه صلى الله عليه وسلم للتعدديَّة الدِّينيَّة في المجتمع الإنسانيِّ الواحدِ، ليس تحت حكمِ السلطةِ غيرِ المسلمةِ فحسبُ، بل وحتى تحت سلطانِ الدولة المسلمة، ودليلُ ذلك ما جاء في صحيفة المدينة المشهورة، التي كتبها صلى الله عليه وسلم أوَّلَ مَقدَمِهِ المدينةَ المنورة مهاجرًا، ومع أوَّلِ لَبِناتِ بناءِ الدولة الإسلامية فيها، وهي الصحيفةُ الدستوريَّةُ التي نظَّمَت قواعدَ وأُسُسَ عَلاقاتِ المواطنة داخلَ مجتمع المدينة المنوَّرة، بين المسلمين أنفسِهم من جهة، وبين المسلمين وغيرِهم من الجهة الأخرى، بحيث حدَّدت الحقوقَ والواجباتِ للأفراد والجماعات على حَدٍّ سواءٍ، وتضمَّنت تنظيمًا عادلًا للعَلاقات بين مختلِفِ فئات المجتمع على أساس المواطنة، بِغَضِّ النظر عن الدِّين أو العِرْق أو اللَّوْن أو الجِنْس، كما نَصَّت صراحةً على احترام التعدديَّة

الدِّينيَّة، وضمانِ حريَّة العقيدة والعبادة للمسلمين ولليهود على حَدٍّ سواءٍ، حيث جاء فيها ما نصه: «وإِنَّ يَهُود بَني عَوفٍ أُمَّةٌ مَعَ المؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي النَّجَّارِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ»، وعدَّد بقيةَ بطونِ اليهود وقبائلِهم(*).

وحين جاء وفدُ نصارى نَجْرانَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة، استقبلهم في المسجد النبويِّ الشريف، وسمح لهم بأداء صلاتهم في المسجد، وهذا قمةُ التسامح الدينيِّ، واحترامِ حريَّة العقيدة والعبادةِ، من النبيِّ صلى الله عليه وسلم لغير المسلمين، حيثُ نقل ابنُ كثير في «تفسيره» عند تفسير قول اللهَّ تعالى: *فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ* فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهَّ عَلَى الْكاذِبِينَ (٦١) عن محمد بن إسحاق أنهم قَدِموا على النبيِّ صلى الله عليه وسلم المدينة، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول اللهَّ صلى الله عليه وسلم، فقال رسول اللهَّ صلى الله عليه وسلم: «دَعُوهُم»(*).

قال الإمامُ ابن القيِّم في ذلك: «وقد صَحَّ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه أنزل وفد نصارى نجران في مسجده، وحانت صلاتُهم فصلَّوا فيه، وذلك عامَ الوفود بعد نزول قوله تعالى: *إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا*.

ولعلَّ ثمَّةَ مَن يُمكِنُ أن يلتبسَ عليه في هذا الأمرِ قولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»(*)، فيظنَّ ذلك تشريعًا لإكراه الناس على الدخولِ في الإسلام، والحقُّ أن هذا الحديثَ النبويَّ الشريفَ يجب أن يُفهَم في ضوء رُوحِ الرسالة الإسلامية بعموم ما فيها من مبادئَ وقواعدَ عامَّةٍ، وألا يُؤخَذَ وَحدَهُ بمَعزِلٍ عن آيات القرآن الكريم التي تمنع الإكراهَ في الدين، والتي سبق إيرادُها آنفًا، وعن سياقات السيرة والسنة النبوية التي لم تَعرِف إكراهَ أحدٍ على الدخول في الإسلام، حيث لم يُكرِهِ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أحدًا من أهل المدينة المنورة حين هاجر إليها على الدخولِ في الإسلام، ولمَّا فتح اللهُ عليه مَكَّة لم يقل لأهلها: من أسلم فهو آمن، بل قال لهم: «مَن دَخَلَ المسجدَ فهو آمنٌ، ومَنَ دَخَلَ بيتَ أبي سفيانَ فهو آمنٌ، وَمَنَ أَغلَقَ عليه بابَهُ فهو آمنٌ»(*)، ثم قال لهم: «اذهبوا فأنتمُ الطُّلَقاءُ»(*)، وعلى نفس هذه السنة النبوية الماضية سار الخليفةُ الراشدُ عمر بن الخطاب حين كتب في العهدةِ العُمَريَّةِ لأهلِ القدسِ من غير المسلمين: ألا يُضارَّ أحدٌ منهم ولا يُرغم بسبب دينه(*).

ولعلَّ أقرب تأويلات هذا الحديث الصحيح إلى رُوحِ المنهج الإسلاميِّ، وإلى موافقة الآيات القرآنيَّة الواردة في الموضوع، أن يُقالَ: إن المقصودين بالقتال هنا هم أولئك الذين يُعادون الإسلام، ويمنعونه من الانتشار بين الناس، ويَحُولون بين الناس وبين حرية اعتناقِ الإسلام والقيامِ بتكاليفه؛ من الصلاة والزكاة، إن هم أرادوا ذلك، أما من يلتزم بالسلم فلا عُدوانَ عليه، حتى لو بَقِيَ محتفظًا

بعقيدته التي تخالف عقيدة الإسلام، وقد ذكر قريبًا من ذلك الحافظُ ابنُ حجرٍ العسقلانيُّ عند شرحه لهذا الحديث النبويِّ الشريف(*).

ويقول الإمام ابنُ القَيِّم رحمه اللهَّ في مِثلِ ذلك: إنَّ القتال إنَّما وجب في مقابلةِ الْحِرَاب لا في مقابلة الكفر، ولذلك لا يُقتلُ النساءُ ولا الصبيانُ، ولا الزَّمْنَى والعُميان ولا الرُّهْبان الذين لا يُقاتِلون، بل نُقاتِلُ مَنْ حارَبَنا، وهذه كانت سيرةَ رسول اللهَّ صلى الله عليه وسلم في أهل الأرض، كان يُقاتِلُ مَنْ حارَبه إلى أن يدخلَ في دينِه أو يُهادِنَهُ أو يدخل تحت قهرِه بالجزيةِ»(*).

وهذا يؤكِّدُ أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يُقاتل أحدًا بسبب دِينِه، ولم يُجبر أحدًا على تغيير دينه، بل كان يُقاتل مَن يعتدي عليه، أو يحاولُ أن يُجبرَ الناسَ على غير ما يريدون.

ويمكن القولُ هاهنا: إنَّ أساسَ عَلاقةِ المسلمين مع غير المسلمين، في المجتمعات الإنسانيَّة كافَّةً، في بلاد المسلمين وفي بلاد غير المسلمين، هو قولُ اللهَّ تعالى: لَا يَنْهَاكُمُ اللهَّ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(8) [الممتحنة: ٨]، فالبرُّ والقسطُ مطلوبان من المسلم للناس جميعًا، ولو لم يكونوا متفقين معه في الدين أو العقيدة، فلا عدوان عليهم في دينهم، أو عباداتهم ومقدَّساتهم، ما لم يحاربوا الإسلامَ وأهلَه، وما لم يَعتَدُوا على بلاد المسلمين وحقوقهم.

إنَّ هذه الأُسسَ التي أرساها الإسلامُ منذ بداياته الأولى، لم تكن مجرَّدَ مثاليَّاتٍ نظريَّةٍ غيرِ قابلةٍ للتطبيق في واقع الحياة، بل لقد تعايشَ الناسُ في ظل الإسلام على هذه القواعدِ قرونًا طويلةً، رغم ما كان بينهم منِ اختلافٍ في الدين والاعتقاد، فلم يبغِ أحدٌ على أحد بسبب دينه أو عقيدته، ولم يشعر أحدٌ بأيِّ انتقاص في حقوقه أو في واجباته، بل لقد ساهموا جميعًا في بناء مجتمعهم الواحد، وعلى أساس المواطنة التي يتساوى فيها الجميع في الحقوق والواجبات.

ولعلَّ من المفيد هنا، ونحن نتحدث عن احترام التعدديَّة الدِّينيَّة، وحريَّة الاعتقاد والتديُّن، أن نُشيرَ إلى نموذجين رائعين في العيش المشترك بين أتباع الأديان المختلفة في عصرنا الحاضر:

النموذج الأول: في فلسطين، حيث يعيش المسلمون والمسيحيون والسامريون تحت راية المجتمع الفلسطيني الواحد، في تعاون وتسامح وبرٍّ ورحمة متبادلة، دون أن تَحجُرَ الأغلبيَّةُ المسلمةُ على حقوق الأقليَّة غيرِ المسلمة، بل إن ثمَّةَ رفضًا فلسطينيًّا لمصطلح الأقليَّة والأغلبيَّة في هذا السياق، فجميعُهم ينخرطون في المواطنة الفلسطينيَّة الجامعة، منذ التحريرِ الإسلاميِّ للقدس في عهد عمر بن الخطاب رضي اللهَّ عنه، حيثُ إنَّ مفاتيحَ كنيسةِ القيامة في القدس لا تزالُ في عهدة عائلتين مسلمتين من أهل المدينةِ، هما عائلةُ جودة وعائلة نسيبة، حيث يقومُ أفرادٌ من العائلتين بفتح أبواب الكنيسة وإغلاقها يوميًّا، إضافةً إلى القيامِ على حماية الكنيسة وحراستها، فضلًا عنِ انخراطِ كلِّ قطاعاتِ الأُمَّةِ، وعلى قدم المساواة،

في النضال الوطنيِّ للتخلُّص من الاستعمارِ والاحتلالِ، لا فرق في ذلك بين مسلمٍ ومسيحيٍّ وسامريٍّ، حتىٰ إنَّ يهودًا يرفضون الصهيونيَّة، يشاركون في هذا النضال العادل.

النموذج الثاني: في مصر، حيث يعيشُ المسلمون والأقباطُ في إطار المواطنة المصريَّة، دون أيِّ اختلافات تَجرَحُ وجهَ التعايشِ الودِّيِّ بينهم، هذا العيش المشترك القائم علىٰ قيم العدل والسلم الاجتماعيِّ، والتعاون المشترك لما فيه مصلحة الجميع، والذي علىٰ أساسه، وانطلاقًا من قيم الدين القويم، جاءت مبادرةُ الأزهر الشريف عام ٢٠١١م إلىٰ إنشاء «بيت العائلة المصريَّة»، الذي انخرط فيه مسلمو مصر وأقباطُها، من أجل تعزيز قيم المواطنة، وترسيخ الوحدة الوطنية والحرية والعيش المشترك في مصر، وفي باقي أقطار العالم العربيِّ والإسلاميِّ.

لقد عاش المسلمون وغير المسلمين في العالم الإسلاميِّ قرونًا طويلة، في وُدٍّ وتسامحٍ وبرٍّ وصلةٍ، لم يشعر أيٌّ منهم بأنه مهدَّدٌ في دينه أو نفسه أو ماله أو عِرضِه، فهذه طبيعةُ الإسلام ورسالتُه الإنسانيَّةُ التي لا تُغيِّرُها الحوادثُ ولا الأيامُ، ويجب ألا نسمحَ لأصحاب المآربِ المنحرفةِ، والأفكار الضالة أن يُغيِّروا هذه الثقافة التي سادت بلادَنا علىٰ مدىٰ أربعةَ عشَرَ قرنًا خَلَت.